(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**) .

[البقرة : ٦٢] .

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**) أي آمنوا بمحمد ﷺ .

(**وَالَّذِينَ هَادُوا**) وهم اليهود ، سموا بذلك ، قيل : من التوبة كقول موسى (إنا هدنا إليك) أي تبنا إليك، وقيل : نسبة إلى يهود أكبر أولاد يعقوب ، وقيل : لأنهم يتهودون ، أي يتحركون عند القراءة.

(**وَالنَّصَارَى**) هم أتباع عيسى ، سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم ، وقيل : سموا بذلك لأنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة .

(**وَالصَّابِئِينَ**) اختلف العلماء فيهم ، فقيل: هم قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين، وهذا قول مجاهد ، وقيل : هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور ، وقيل : هم قوم يعبدون الملائكة .

- **قال ابن كثير** : وأظهر الأقوال والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتنونه، ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ، أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك. وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم .

(**مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ**) الإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده والإيمان بربوبيته والإيمان بألوهيته والإيمان بأسمائه وصفاته .

(**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**) الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت ، فيشمل ما يكون في القبر من سؤال الملكين ، وعذاب القبر ونعيمه ، والبعث ، والحشر ، والصراط ، والجزاء ، والجنة والنار ، سمي بذلك لأنه لا يوم بعده .

- وكثيراً ما يقرن الله عز وجل بين الإيمان به وبين الإيمان باليوم الآخر .

كما في قوله تعالى (وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) .

وقوله تعالى (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) .

وقوله تعالى (وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ) .

وقال ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) متفق عليه .

وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم الحوافز التي تدفع الإنسان للعمل الصالح، حيث الجزاء على الأعمال في ذلك اليوم، فهو أعظم دافع إلى العمل الصالح، وهو أعظم رادع عن التمادي في الباطل لمن وفقه الله.

وقد روي عن عمر أنه قال (لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى) أي: لتنكّر الناس بعضهم لبعض وتهالكوا في الشرور، واعتدى بعضهم على بعض ونحو ذلك.

(**وَعَمِلَ صَالِحاً**) العمل الصالح ما اجتمع فيه شرطان : الإخلاص لله ، المتابعة للرسول ﷺ .

ودائماً يقرن الله العمل بالصالح ، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحاً .

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...) .

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ...) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) .

قال السعدي : ووصفت أعمال الخير بالصالحات ، لأن بها تصلح أحوال العبد ، وأمور دينه ودنياه ، وحياته الدنيوية والأخروية ، ويزول بها عنه فساد الأحوال ، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته .

(**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**) أي : ثوابهم عند ربهم .

- وفي تسمية ثوابهم أجراً تأكيد لتكفله –عز وجل– لهم بذلك ، وفي كونه عند ربهم تعظيم له ، لأنه الكريم الجواد .

(**وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**) أي : فيما يستقبلونه من أمر الآخرة .

(**وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**) أي : على ما فاتهم من أمور الدنيا .

- هذه الآية هي قطعاً في الأمم التي كانت قبل مبعث النبي ، فإن الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب ، فمن تبع الأنبياء وقبل دعوتهم واستجاب لهم فإن الله وعده بالرحمة والجنة، وأما بعد مبعث النبي ﷺ فإن الله لا يقبل من أحد سوى الإسلام.

كما قال (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

وقال النبي ﷺ (لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) رواه مسلم .

- فقد جاءت الآيات القرآنية في كفر اليهود والنصارى ، وكونهم مشركين لا يقبل الله منهم إيماناً ولا عملاً قال تعالى (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) .

وقال تعالى (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ) .

- فالمراد إذاً من الآية (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ...) الإخبار عمن مضى ممن كان متمسكاً بدين حقٍّ من اليهود والنصارى والصابئين ، ومن المؤمنين بعد مبعث النبي ﷺ .

قال ابن القيم : فتناولت هذه الآية من كان من أهل هذه الملل الأربع متمسكاً بها قبل النسخ بغير تبديل .

وقال السعدي : والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث هم ، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد ، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ ، وأن هذا مضمون أحوالهم .

ويستدل لهذا :

ما جاء عن سلمان أنه قال (سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم ، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ..) .

ولحديث عياض بن حمار . أن رسول الله ﷺ قال في حديثه عن قبل البعثة (وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) رواه مسلم .

- وذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ...) منسوخة بقوله تعالى (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ونسبه ابن الجوزي لجماعة من المفسرين .

الفوائد :

١– فضل من آمن بالله واليوم الآخر مع العمل الصالح، وأنه لا خوف عليه ولا حزن وله أجر كبير عند الله.

٢- بيان عدل الله .

٣- أن العبرة عند الله بالإيمان والعمل الصالح .

٤- وجوب الإيمان باليوم الآخر .

٥- أن الإيمان بالله والعمل الصالح يطرد الخوف والقلق .

٦- أن عدم الإيمان بالله وعدم العمل الصالح سبب للقلق والاضطراب والخوف .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

[البقرة : ٦٣-٦٤]

(**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ**) يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له ، واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق، رفع الجبل فوق رؤوسهم .

- **قال الآلوسي** : تذكير بنعمة أخرى ، لأنه سبحانه إنما فعل ذلك لمصلحتهم ، والظاهر من الميثاق هنا العهد ، ولم يقل : مواثيقكم ، لأن ما أخذ على كل واحد منهم أخذ على غيره فكان ميثاقاً واحداً ولعله كان بالانقياد لموسى عليه السلام .

- فالطور هو الجبل كما فسره به في الأعراف في قوله تعالى (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) . نتقنا : أي رفعنا .

- **قال الشوكاني** : والطور : اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وأنزل عليه التوراة فيه.

- **قال أبو حيان** : سبب رفعه امتناعهم من دخول الأرض المقدّسة ، أو من السجود ، أو من أخذ التوراة والتزامها .

- **قال ابن الجوزي** : وجمهور العلماء على أنه إنما رفع الجبل عليهم لإبائهم التوراة .

(**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ**) أي التوراة .

(**بِقُوَّةٍ**) أي : أي بجد وعزيمة كاملة وعدول عن التغافل والتكاسل .

- في هذا أنه ينبغي على الإنسان أن يأخذ أوامر الله بنشاط وقوة وعزيمة .

ومما يؤدي ويحفز إلى النشاط في الطاعات ما يلي :

أولاً : أن يعلم أنه سيأتي يوم ينمو يتمنى أن لو عمل .

قال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) .

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) .

(يَا لَيْتَنِي) متحسراً متندماً .

وفي الآية دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها هي الحياة في دار القرار .

وقال ﷺ (بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ..) .

ثانياً : أن النشاط في الطاعات دليل القوة .

عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) .

ثالثاً : أن النشاط في العبادة دليل الإيمان .

فإن المنافق لا يأتي للطاعة إلا بكسل وتثاقل .

قال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً) .

وقال تعالى (وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ) .

وقال ﷺ (أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء والفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً) .

رابعاً : أن النشاط في الطاعة من دعاء النبي ﷺ .

فقد ﷺ يستعيذ من ضدها من كسل وعجز .

عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ وَالْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ) متفق عليه .

خامساً : أن ذلك من صفات الأنبياء .

قال تعالى (يا يحيي خذ الكتاب بقوة) .

وقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) .

سادساً : ذكر نعم الله .

قال تعالى (اذكروا نعمة الله عليكم) .

فإن ذكر النعم داع إلى محبة الله ، منشط في العبادة .

- وإذا استمر الإنسان بالكسل والتخلف والتباطئ قد يعاقب بعدم التوفيق للطاعة مرة أخرى .

قال تعالى (وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِين) .

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى فِي أَصْحَابِهِ تَأَخُّراً فَقَالَ لَهُمْ : تَقَدَّمُوا فَائْتَمُّوا بِي وَلْيَأْتَمَّ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ لاَ يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللَّهُ) .

قال الشيخ ابن عثيمين : وعلى هذا فيخشى على الإنسان إذا عود نفسه التأخر في العبادة أن يبتلى بأن يؤخره الله عز وجل في جميع مواطن الخير .

(**وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ**) يقول: اقرؤوا ما في التوراة واعملوا به .

- **قال القرطبي** : (واذكروا مَا فِيهِ) أي : تدبّروه واحفظوا أوامره ووعيده ، ولا تنسوه ولا تضيّعوه.

قلت : هذا هو المقصود من الكُتب ، العملُ بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فإن ذلك نَبْذٌ لها ؛ على ما قاله الشعبي وابن عُيَيْنة .

(**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**) (لعل) للتعليل ، أي : لأجل أن تتقوا الهلاك في الدنيا والآخرة .

(**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**) أي من بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه .

- **قال أبو حيان** : أي أعرضتم عن الميثاق والعمل بما فيه .

(**فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ**) أي بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم .

(**لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة .

- ونقض العهد ضرره عظيم من اللعنة وقسوة القلب كما قال تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَة).

الفوائد :

١- أن الله أخذ العهود والمواثيق على بني آدم أن يوحدوه ويؤمنوا به .

٢- بيان قدرة الله ، حيث رفع فوقهم هذا الجبل العظيم .

٣- وجوب أخذ الإنسان شريعة الله بقوة .

٤- الحذر من الكسل والتواني في الأعمال الصالحات وهذا ينقسم إلى قسمين :

أولاً : التواني في فعل المأمورات : بأن نتكاسل في فعل الواجبات ونتراخى في فعل المندوبات .

ثانياً : الضعف في ترك المنهيات ، بحيث يضعف الإنسان أمام الشهوة الدافعة إلى فعل المعصية .

٥- وجوب ذكر ما في الكتب السابقة، من وعد ووعيد، وترغيب وتهديد، وهذا الذكر يكون باللسان وبالعمل والتطبيق .

٦- إثبات فضل الله على بني إسرائيل .

٧- أن أخذ الشرائع بقوة وذكر ما فيها يكون سبباً للتقوى .

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) .

[البقرة : ٦٥ – ٦٦] .

(**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**) يقول تعالى (**ولقد علمتم**) يا معشر اليهود ما أحل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم ، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الحبائل والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك، مسخهم الله إلى صورة القردة وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم .

قال الرازي : المقصود من ذكر هذه القصة أمران :

الأول : إظهار معجزة محمد عليه السلام فإن قوله (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ) كالخطاب لليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه السلام فلما أخبرهم محمد عليه السلام عن هذه الواقعة مع أنه كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط القوم دل ذلك على أنه عليه السلام إنما عرفه من الوحي.

الثاني : أنه تعالى لما أخبرهم بما عامل به أصحاب السبت فكأنه يقول : لهم أما تخافون أن ينزل عليكم بسبب تمردكم ما نزل عليهم من العذاب فلا تغتروا بالإمهال الممدود لكم .

- وقد جاءت القصة مبسوطة في سورة الأعراف ، قال تعالى (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .

(**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ**) أي واسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية .

(**الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ**) مبنية على شاطئه بحضرته قريباً منه .

- اختلف العلماء في هذه القرية ، فقيل : هي أيلة وهذا قول الأكثر ، وقيل : مدين ، وقيل غير ذلك ، ولا يهم معرفة القرية ، وإنما المهم معرفة ما حدث لهم والاعتبار به والاتعاظ .

وملخص قصتهم : كانت هذه القرية محرم عليهم الاصطياد يوم السبت – ابتلاء واختباراً من الله – وكان يشتد قرمهم إلى لحم السمك – القَرَم بفتحتين : شهوة اللحم – وكان الله افتتنهم فتنة ، كان إذا كان يوم السبت جاءهم السمك على وجه البحر أفواجاً أفواجاً ، فإذا غربت الشمس يوم السبت تمنّع في البحر فلا يقدرون على شيء منه ، وهذا ابتلاء وامتحان لهم ، فمكثوا من الزمن بهذا ما شاء الله، ثم بعد ذلك اشتدت شهوتهم إلى اللحم، فصاروا يحتلون على السمك يوم الجمعة – مثلاً – فيحفرون فيُجرُون في الماء أخاديد يسيل فيها الماء ، فإذا انتهت حفروا حُفراً عميقة ، فإذا جاء الحوت مع تلك الأخاديد المائية نزل في الحفر فلا يقدر على الرجوع فأخذوه يوم الأحد ، وكان بعضهم — فيما يقولون — يجعل في ذنب الحوت خيطاً ويدق وتداً على الشاطئ، ويمسك رأس الخيط فيه، فيبقى الحوت في الماء ممسكاً بالخيط، فإذا غربت شمس يوم السبت جاء وأخذه، فلما فعلوا هذه الحيل ولم يعاجلهم العذاب كأنهم تجرؤا وتشجعوا وقالوا : لعل حرمة صيد السمك رفعها الله ، لأنه لم يفعل بنا بأساً ، فلم يزالوا يتدرجون في الحيل حتى صار بعضهم يصطاده علناً ويملحونه ويبيعونه في الأسواق ، وكانوا ثلاث طوائف : طائفة باشرت العدوان يوم السبت واصطياد السمك ، وطائفة نهتهم عنه ، وطائفة سكتت ، وقد بيّن الله أن الذين اعتدوا في السبت عذبهم عذاباً بئيساً وهو مسخهم قردة ، والطائفة التي نهتهم أنجاهم ، وسكت تعالى عن الطائفة الساكتة .

(**فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**) أي : فأصبحوا قردة خاسئين . والخاسئ : هو الحقير الذليل الخسيس .

- **قال الشنقيطي** : القردة : جمع قرد ، وهو الحيوان المعروف ، وهو من أخس الحيوانات ، والدليل على أنه من أخس الحيوانات أن الله مسخ في صورته من أراد إذلالهم وإهانتهم وصغارهم ، وهذا معروف أن القرد من أخس الحيوانات .

- اختلف العلماء هل هذا المسخ كان حقيقة أم كان معنوياً، **والصحيح** أنه كان حسياً فصاروا قردة، وهذا قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد : مسخت قلوبهم ولم تمسخ صورهم ، قال القرطبي : ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم .

(**فَجَعَلْنَاهَا**) اختلف في مرجع الضمير على أقوال :

قيل : العقوبة .

وقيل : القردة .

وقيل : القرية ، وهذا الصحيح .

ورجحه ابن كثير ، وقال : والصحيح أن الضمير عائد على القرية ، أي فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم .

(**نَكَالاً**) أي عاقبناها عقوبة فجعلناها عبرة .

- **قال القرطبي** : والنّكال : الزجر والعقاب ، والنِّكْل والأنكال : القيود ، وسُمِّيت القيود أنكالاً لأنها يُنكل بها ، أي يمنع ، والتّنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تُنَكِّل مَن وراءهم ؛ أي تُجَبِّنهم .

(**لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا**) اختلف العلماء في المراد في قوله : بين يديها وما خلفها .

والصحيح : (**بين يديها**) أي من بحضرتها من القرى يبلغهم خبرها وما حل بها كما قال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) فجعلهم عبرة ونكالاً لمن في زمانهم .

(**وما خلفها**) من يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم .

(**وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**) المراد بالموعظة هنا الزاجر ، أي جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل ، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم .

- **قال الرازي** : (وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) أن : من عرف الأمر الذي نزل بهم يتعظ به ويخاف إن فعل مثل فعلهم أن ينزل به مثل ما نزل بهم ، وإن لم ينزل عاجلاً فلا بد من أن يخاف من العقاب الآجل الذي هو أعظم وأدوم .
- **وقال الآلوسي** : (وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) الموعظة ما يذكر مما يلين القلب ثواباً كان أو عقاباً .

الفوائد :

١- تحريم الحيل المحرمة وأن ذلك من صفات اليهود .

والحيلة : التوصل إلى أمر محرم بفعلٍ ظاهره الإباحة ، والحيل حرام لقوله ﷺ (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) ولأن المتحيل فيه نوع استهزاء بالله تعالى .

كل من تحيل لارتكاب محرم [إما بإسقاط واجب أو فعل محرم] فقد ارتكب مفسدتين :

الأولى : مفسدة التحايل . **الثانية** : مفسدة فعل المحرم .

إسقاط واجب : سافر من أجل أن يفطر ، [فعل محرم] قلب الدين كما سبق .

وقد دل على التحريم أدلة كثيرة :

منها : الآية التي معنا حيث عاقبهم الله ومسخهم قردة .

ومنها : قوله ﷺ (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) رواه ابن أبي بطة .

ومنها : أن الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم بما بلاهم به في سورة (القلم) وأنه عاقبهم بأنه أرسل على جنتهم طائفاً وهو نائمون فأصبحت كالصريم ، وذلك لما تحيلوا على إسقاط نصيب المساكين ، بأن يصرموها مصبحين ، قبل مجيء المساكين ، فكان في ذلك عبرة لكل محتال على إسقاط حق من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده .

٢- أن إقامة شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للنجاة .

لقوله تعالى في سورة الأعراف في هذه القصة (**وأَ**نْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) .

وعن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً) . رواه البخاري

٣- تذكير الأمة بما فعل أسلافها ليتخذوا من ذلك عبرة .

٤- وجوب الاعتبار بقصص من مضى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) .

٥- أن الحيل من صفات اليهود .

٦- أن العقوبة تكون مجانسة للعمل ، فهؤلاء القوم لما تحيلوا على فعل المحرم بما ظاهره الإباحة ، قلبهم الله إلى أقرب الحيوانات شبهاً بالإنسان وهي القردة .

٧- بيان قدرة الله حيث قلب هؤلاء البشر من الإنسانية إلى الحيوانية البهيمية .

٨- إثبات العقوبة وأن العقوبة لابد أن لها تأثيراً .

٩- أن الموعظة إنما ينتفع بها المتقون ، فمن ليس بمتقٍ لا ينتفع بالموعظة ، فكلما كان الإنسان أتقى لله كان أوعى للموعظة

وأكثر انتفاعاً بها .

١٠- أن من فوائد التقوى أن صاحبها يتعظ ويعتبر بما يحصل .

١١- فضل التقوى .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ (٦٨) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاءَ اللّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)) .

[البقرة : ٦٧- ٧٣] .

(**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً**) أي واذكروا يا بني إسرائيل حين قال لكم نبيكم موسى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) أي : وتضربوا القتيل ببعضها فيحيا ، فيخبركم عن قاتله.

- **قال ابن عاشور** : تعرضت هذه الآية لقصة من قصص بني إسرائيل ظهر فيها من قلة التوقير لنبيهم ومن الإعنات في المسألة والإلحاح فيها إما للتفصي من الامتثال ، وإما لبعد أفهامهم عن مقصد الشارع ورومهم التوقيف على ما لا قصد إليه.

وسبب ذلك : أنه وجد قتيل في بني إسرائيل ولا يعرف قاتله ، فأتوا موسى وطلبوا منه أن يسأل ربه عن قاتله ، فأمرهم بذبح بقرة فقال (أن تذبحوا بقرة) .

وظاهر هذه الآية يدل على أنهم لو ذبحوا أيّ بقرة لأجزأت ، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم .

(**قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً**) هذا جواب منهم لموسى لما قال لهم (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً) .

والهزء : اللعب والسخرية .

(**قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ**) لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل ، فاستعاذ منه عليه الصلاة والسلام ، لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء .

قال أبو حيان (قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) لما فهم موسى عليه السلام عنهم أن تلك المقالة التي صدرت عنهم إنما هي لاعتقادهم فيها أنه أخبر عن الله بما لم يأمر به ، استعاذ بالله وهو الذي أخبر عنه ، أن يكون من الجاهلين بالله ، فيخبر عنه بأمر لم يأمر به تعالى ، إذ الإخبار عن الله تعالى بما لم يخبر به الله إنما يكون ذلك من الجهل بالله تعالى.

- وفي الآية دليل على أن الذي يستهزئ بالناس جاهل سفيه .

(**قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ**) أي ما سنها .

- **قال الشنقيطي** : لم يبين هنا مقصودهم بقولهم (ما هي) إلا أن جواب سؤالهم دل على أن مرادهم بقولهم في الموضع الأول (ما هي) أي ما سنها .

- **قال القرطبي** : هذا تعنيت منهم وقلّة طواعية؛ ولو امتثلوا الأمر وذبحوا أيّ بقرة كانت لحصل المقصود، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ، قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما.

(**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ**) أي : لا كبيرة هرِمَة ، ولا صغيرة لم يلْقَحْها الفحل .

(**عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ**) أي وسط بين الكبيرة والصغيرة .

(**فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ**) أي افعلوا ما أمركم به ربكم ولا تتعنتوا ولا تشددوا فيشدد الله عليكم .

- **قال القرطبي** :(فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ) تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فما تركوه.

وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ؛ وهو الصحيح على ما هو مذكور في أصول الفقه .

(**قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ**) أي إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة ، ولذلك أكد صفرتها بقوله :

(**فَاقِعٌ لَّوْنُهَا**) شديدة الصفرة .

- **قال ابن عاشور** : سألوا بـ (ما) عن ماهية اللون وجنسه لأنه ثاني شيء تتعلق به أغراض الراغبين في الحيوان .

وما ذهب إليه بعض العلماء من أن المراد بالصفرة (السواد) مردود من وجهين :

أحدهما : أنه أكّد الصفرة بقوله (فاقع لونها) والفقوع لا يوصف به إلا الصفرة الخالصة تماماً .

ثانيهما : أن العرب لا تُطلق الصفرة وتريد السواد إلا في الإبل خاصة دون غيرها .

- **قال الماوردي** : حُكِيَ عن الحسن البصري ، أن المراد بقوله صفراء ، أي سوداء شديدة السواد ، وقال سائر المفسرين : إنها صفراء اللون ، من الصفرة المعروفة ، وهو أصح ، لأنه الظاهر ، ولأنه قال (فَاقِعٌ لَّوْنُهَا) والفاقع من صفات الصفرة ، وليس يوصف السواد بذلك ، وإنما يقال : أسود حالكٌ ، وأحمر قانٍ ، وأبيضُ ناصعٌ ، وأخضرُ ناضرٌ ، وأصفرُ فاقعٌ.

(**تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ**) تعجب الناظرين .

(**قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا**) أي لكثرتها ، فميّز لنا هذه البقرة ووصفها وجلِّها لنا .

- **قال الآلوسي** : (إِنَّ البقر تشابه عَلَيْنَا) تعليل لقوله تعالى (ادع) كما في قوله تعالى (صَلّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صلاتك سَكَنٌ لَّهُمْ) وهو اعتذار لتكرير السؤال أي إن البقر الموصوف بما ذكر كثير فاشتبه علينا ، والتشابه مشهور في البقر ، وفي الحديث (فتن كوجوه البقر) أي يشبه بعضها بعضاً .

(**وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ**) إذا بينتها لنا، وقد جاء في حديث مرفوع (لولا أن بني إسرائيل قالوا: وإنا إن شاء الله لمهتدون، لما أعطوا، ولكن استثنوا) .

- **قال ابن عاشور** : وقولهم (وإنا إن شاء الله لمهتدون) تنشيط لموسى ووعد له بالامتثال لينشط إلى دعاء ربه بالبيان ولتندفع عنه سآمة مراجعتهم التي ظهرت بوارقها في قوله (فافعلوا ما تؤمرون) ولإظهار حسن المقصد من كثرة السؤال وأن ليس قصدهم الإعنات ، تفادياً من غضب موسى عليهم ، والتعليق بـ(إن شاء الله) للتأدب مع الله في رد الأمر إليه في طلب حصول الخير .

(**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي ٱلْحَرْثَ**) أي إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقي في الساقية، بل هي مكرمة حسنة .

(**مُسَلَّمَةٌ**) أي لا عيب فيها ، ليس فيها عرج ولا عور ولا كسر قرن .

(**لاَّ شِيَةَ فِيهَا**) أي ليس فيها لون غير لونها .

- **قال ابن كثير** : وقد زعم بعضهم أن المعنى في ذلك قوله تعالى (إنها بقرة لا ذلول) ليست بمذللة بالعمل، ثم استأنف فقال (تثير الأرض) أي يعمل عليها بالحراثة، لكنها لا تسقي الحرث، وهذا ضعيف لأنه فسر الذلول التي لم تذلل بالعمل بأنها لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث، كذا قرره القرطبي .

(**قَالُواْ ٱلۡآنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ**) أي : الآن بينت لنا .

- **قال ابن القيم** : من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم (قَالُواْ ٱلۡآنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ) فإن أرادوا بذلك : أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة ، فتلك ردةٌ وكفر ظاهر ، وإن أرادوا : إنك الآن بيّنت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر ، فإن البيان قد حصل بقوله (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) .

(**فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ**) عن ابن عباس: كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها.

- **قال ابن كثير** : يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد ، وفي هذا ذم لهم ، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت ، فلهذا ما كادوا يذبحونها .

وقيل : فذبحوها وما كادوا يفعلون لكثرة ثمنها ، وفي هذا نظر .

وقيل : أنهم كادوا ألا يذبحوها خوفاً من الفضيحة التي ستحل بالقاتل وقومه .

ورجح ذلك ابن جرير؛ **فقال** : والصواب من التأويل عندنا أن القوم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة للخلتين كلتيهما، **إحداهما** : غلاء ثمنها، مع ما ذكر لنا من صغر خطرها وقلة قيمتها ، **والأخرى:** خوف عظيم الفضيحة على أنفسهم بإظهار نبي الله موسى على قاتله .

(**وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡساً فَٱدَّٰرَأۡتُمۡ فِيهَا**) أي وإذ قتلتم نفساً محرمة فاختلفتم فيها، فبين الله ما حصل بواسطة هذه البقرة التي ذبحت.

- هذه الآية مؤخرة في التلاوة ، مقدمة في المعنى .
- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡساً فادارأتم فِيهَا) هذا الكلام مقدّم على أوّل القصة ، التقدير : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها : فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا ، وهذا كقوله (الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً) أي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قَيِّماً وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ؛ ومثله كثير .
- قوله (نفساً) لم يصرح هل هذه النفس ذكر أم أنثى ، وقد أشار إلى أنها ذكر بقوله تعالى (فقلنا اضربوه ..).

(**وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ**) أي مظهر ما تخفونه .

والآية تدل على أن من فعل سوءاً وكتمه أن الله يظهره ، فلا يسر الإنسان سريرة – غالباً – إلا ألبسه الله رداءها .

(**فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ**) أي : اضربوا القتيل ، وصيغة الجمع للتعظيم .

(**بِبَعۡضِهَا**) أي ببعض البقرة ، وهذا البعض لم يحدد ، فأي شيء ضرب به حصلت المعجزة .

قال الرازي : في الكلام محذوف والتقدير ، فقلنا اضربوه ببعضها فضربوه ببعضها فحيي إلا أنه حذف ذلك لدلالة قوله تعالى (كذلك يُحْيِ الله الموتى) .

قال ابن كثير : هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن ، وقد كان معيناً في نفس الأمر ، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا ، ولكنه أبهمه ولم يجي من طريق صحيح عن معصوم بيانه ، فنحن نبهمه كما أبهمه الله .

قال الشوكاني : واختلف في تعيين البعض الذي أمروا أن يضربوا القتيل به ، ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم ، ويكفينا أن نقول : أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها، فأيّ : بعض ضربوا به، فقد فعلوا ما أمروا به، وما زاد على هذا ، فهو من فضول العلم ، إذ لم يرد به برهان.

فلما ضربوه ببعضها قام فقالوا من قتلك ؟ قال : قتلني فلان .

(**كَذَٰلِكَ يُحۡيِي ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ**) أي : كما أحيا الله هذا القتيل ، وهذا الجم الغفير من الناس ينظرون ، كذلك الإحياء المشاهد يحيي

الله الموتى يوم القيامة .
فهو دليل قرآني على البعث ، لأن من أحيا نفساً واحدة فهو قادر على إحياء جميع النفوس ، وقد قال تعالى (مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) .
(**وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ**) أي : يجعلكم تروها واضحة .
قال القاسمي : (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) أي : دلائله الدالة على أنه تعالى على كل شيء قدير ، ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء . والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت . وإخباره بقاتله ، وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة .

وسبق أن آيات الله تنقسم إلى قسمين كونية، كالشمس والقمر والليل والنهار، ومعنى أنها آية : أي علامة على كمال قدرة الله .
وآيات شرعية : كالوحي المنزل كقوله تعالى (رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) أي : آياته الدينية الشرعية ، سميت [الآية الشرعية] آية لأنها علامة على صدق من جاء بها لما فيها من الإعجاز .
(**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) أي : لأجل أن تدركوا بعقولكم أنه – جل وعلا – يحيي الناس بعد الموت ، ويبعثهم من قبورهم ، وأنه قادر على كل شيء .

- **قال الشنقيطي** : أشار في هذه الآية إلى أن إحياء قتيل بني إسرائيل دليل على بعث الناس بعد الموت ، لأن من أحيا نفساً واحدة بعد موتها ، قادر على إحياء جميع النفوس ، وقد صرح بهذا في قوله تعالى (مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) .
- **والله تعالى قد ذكر في هذه السورة خمس قصص تدل على البعث** :

الموضع الأول : قصة بني إسرائيل التي سبقت (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .
الموضع الثاني : هذا الموضع (فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .
الموضع الثالث : قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) .
الموضع الرابع : قوله تعالى في عزير وحماره (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .
الموضع الخامس : قوله تعالى في طيور إبراهيم (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .
في هذه الآية ذكر الله تعالى طريقة من طرق إثبات البعث، وقد تنوعت طرق إثبات البعث في القرآن، وجاءت على سبع طرق:
الطريقة الأولى :
آيات صريحة في إثبات ذلك :
قال تعالى : (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) .وقال تعالى : (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) .وقال تعالى : (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) . وقال تعالى : (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .وقال تعالى : (أَلا يَظُنُّ

أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد :

فقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ) .

وقال تعالى : (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) .

وقال تعالى : (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) .

وذم الله المكذبين بالمعاد :

فقال تعالى : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) .

وقال تعالى : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً) .

الطريقة الثانية :

التذكير بنشأة الإنسان الأولى :

قال تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) .

وقال تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) .

الطريقة الثالثة :

الاستدلال بإنبات النبات على إحياء الأموات :

قال تعالى : (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

وقال سبحانه : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

الطريقة الرابعة :

الإشارة ولفت الانتباه إلى خلق السماوات :

قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

الطريقة الخامسة :

تنزيه الله سبحانه عن العبث .

فلو فرضنا أنه لا جزاء ولا حساب ولا بعث ، فما فائدة الأوامر والنواهي .

قال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) .

وقال تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) . أي : لا يؤمر ولا ينهى ، وقيل لا يبعث .

الطريقة السادسة :

تنزيه الله عن الظلم :

فلو لم يكن هناك بعث لا استوى الناس ، فاستوى المؤمن الذي ترك كثيراً من الشبهات مخافة ربه ، والكافر لا يعرف ربه أصلاً .

قال تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ) .

الطريقة السابعة :

ذكر وقائع وأحداث يستدل بها على البعث .

كما في قصة قتيل بني إسرائيل .

وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها .

وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة .

وقصة أصحاب الكهف ، فقد أماتهم الله في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ، قال تعالى في قصتهم : (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ ...) .

الفوائد :

١- أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله ﷺ .

٢- الدلالة على نبوة موسى ، وأنه رسول رب العالمين .

٣- الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم : من معاد الأبدان ، وقيام الموتى من قبورهم .

٤- إثبات الفاعل المختار ، وأنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، عدلٌ لا يجوز عليه الظلم والجور ، حكيم لا يجوز عليه العبث .

٥- إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق والمتنوعات، زيادته في هداية المهتدي، وإعذاراً وإنذاراً للضال.

٦- أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله بالتعنت وكثرة الأسئلة بل يبادر إلى الامتثال .

٧- أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور وجه الحكمة فيه بالإنكار ، وذلك نوع من الكفر .

٨- الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها وعدم تمكن الإيمان فيها .

٩- مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدراً، فإن القاتل قصده ميراث المقتول ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله تعالى وهتكه وحرمه ميراث المقتول .

٧- الرجوع إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الأمور الهامة التي طريقها الشرع .

٨- بيان ما عليه بنو إسرائيل من سوء الظن بموسى .

٩- تحريم الاستهزاء والسخرية .

١٠- أن الأنبياء لا يلجئون إلا إلى الله .

١١- أن الله مجيب الدعاء .

١٢- أن القاتل لابد أن يخرجه الله .

١٣- أن الله أرى عباده من آياته ما يكون به العقل والرشد .

١٤- أن تدبر الأسباب سبب للعقل .

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)) .

[البقرة : ٧٤] .

(**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ**) يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه القتيل (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) أي : أصبحت قاسية غليظة لا تتأثر بمواعظ ولا يدخلها خير .

(**مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**) أي : من بعد ذلك الأمر الذي عاينتموه ، وهو إحياء القتيل ، الذي هو أعظم سبب للين القلب .

- **قال في التسهيل** (مِن بَعْدِ ذلك) أي بعد إحياء القتيل وما جرى في القصة من العجائب ، وذلك بيان لقبح قسوة قلوبهم بعد ما رأوا تلك الآيات .
- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (من بعد ذلك) زيادة تعجيب من طرق القساوة للقلب بعد تكرر جميع الآيات السابقة المشار إلى مجموعها بذلك .
- معنى قسوة القلب : غلظتها وشدتها بحيث لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير .
- **قال القرطبي** : القسوة : الصلابة والشدّة واليُبْس ، وهي عبارة عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى.
- وقد بين تعالى سبب قسوة القلب في آيات أخرى ومنها : نقض العهد ، وطول الأمل .

قال تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) .

وقال تعالى في طول الأمل (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) .

- وقد نهانا الله تعالى أن نتشبه بأهل الكتاب في قسوة قلوبهم كما في الآية السابقة ، فوصف أهل الكتاب بالقسوة ونهانا عن التشبه بهم .
- أسباب قسوة القلب :

أولاً : نقض العهد مع الله .

قال تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) .

قال ابن عقيل يوماً في موعظته : يا من يجد في قلبه قسوة ، احذر أن تكون نقضت عهداً ، فإن الله يقول (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ...) .

الثاني : طول الأمل .

قال تعالى : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) .

ولذلك طول الأمل ينسي الآخرة ، كما قال علي : أحوف ما أخاف عليكم اثنتين : طول الأمل واتباع الهوى ، فطول الأمل ينسي الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق .

فليس هناك أنفع للقلب من قصر الأمل (وهو العلم بقرب الرحيل) .

الثالث : كثرة الأكل ، لا سيما إن كان من الشبهات أو الشهوات .

قال بشر : خصلتان تقسّيان القلب : كثرة الكلام ، وكثرة الأكل .

الرابع : كثرة الذنوب .

قال تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

وفي المسند قال ﷺ (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ، فلذلك الران الذي ذكر الله في كتابه : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

قال بعض السلف : البدن إذا عري رقّ ، وكذلك القلب إذا قلت خطاياه أسرعت دمعته .

قال ابن المبارك :

رأيت الذنوب تميت القلوب ويورث الذل إدمانها .

وترْك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسِك عصيانها .

- **علامات رقة ولين القلب** :

أولاً : الإكثار من ذكر الله .

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) .

قال رجل للحسن ، يا أبا سعيد ، أشكو إليك قسوة قلبي ، قال : أذبه بذكر الله .

قال بعض السلف : دواء القلب من خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين .

ثانياً : العطف على المسكين .

فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو قسوة قلبه ؟ فقال له الرسول ﷺ : (إذا أحببت أن يلين قلبك فامسح رأس اليتيم وأطعم المسكين) رواه أحمد .

ثالثاً : زيارة المقابر .

قال ﷺ : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة ، وترق القلب) رواه أحمد .

إذا قسا القلب قحطت العين .

رابعاً : كثرة ذكر الموت .

ولذلك قال ﷺ (أكثروا من ذكر هاذم اللذات) رواه الترمذي .

لما في ذلك من رقة القلب ، ونشاط العبادة ، وتعجيل التوبة ، والإقلاع عن المعاصي .

قال سعيد بن جبير : لو فارق الموت ذكر قلبي لفسد .

خامساً : أكل الحلال .

قال الفضيل : من عرف ما يدخل جوفه كتب عند الله صديقاً .

وقال سهل التستري: من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى، ومن أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى .

وسُئِل الإمام أحمد رحمه الله: بِمَ تلين القلوب؟ قال : بأكل الحلال .

سادساً : الدعاء بسلامة القلب .

كان ﷺ يقول (اللهم إني أسألك قلباً سليماً ..) رواه أحمد .

سابعاً : الاستجابة لأمر الله ورسوله .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) .

- **قال ابن القيم** : ما ضربَ عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله .

خلقت النار لإذابة القلوب القاسية .

أبعد القلوب من الله القلب القاسي .

إذا قسا القلب قحطت العين .

قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة : الأكل والنوم والكلام والمخالطة .

كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب ، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجح فيه المواعظ .

(**فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ**) أي : فهي كالحجارة التي لا تلين أبداً ، فلا علاج للينها .

- **قال البغوي** : وإنما لم يشبهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة ، لأن الحديد قابل للين فإنه يلين بالنار ، وقد لان لداود عليه السلام ، والحجارة لا تلين قط .

- **وقال ابن عاشور** : وقد كانت صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر لأنها محسوسة فلذلك شبه بها .

(**أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**) أجمع العلماء على أن (أو) ليست للشك لاستحالة ذلك في حق الله ، واختلف في معناها .

فقيل : هي بمعنى (بل) والتقدير فهي كالحجارة بل أشد قسوة .

كقوله تعالى (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) أي : بل يزيدون .

وقيل : هي بمعنى (الواو) والتقدير : فهي كالحجارة وأشد قسوة .

كقوله تعالى (ولا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً) أي : وكفوراً .

وكقوله تعالى (وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لبعولتهن أو آبائهن) والمعنى وآبائهن .

وكقوله (أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم) يعني وبيوت آبائكم .

وقيل : معنى ذلك قلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين ، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة وإما أن تكون أشد منها في القسوة .

قال ابن جرير : ومعنى ذلك على هذا التأويل : فبعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة ، ورجحه ابن جرير .

(**وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ**) أي : تتدفق منها الأنهار الغزيرة .

(**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ**) أي : ومن الحجارة ما يتصدع إشفاقاً من عظمة الله فينبع منه الماء .

(**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**) أي : ومنها ما يتفتت ويتردى من رؤوس الجبال من خشية الله .

- قال بعض العلماء في قوله (مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) هو سقوط البرد من السحاب ، لكن هذا تأويل بعيد ، وخروج عن اللفظ عن ظاهره بلا دليل ، وزعم بعضهم أن إسناد الخشوع إلى الحجارة من باب المجاز ، ولكن هذا قول ضعيف ، قال القرطبي : ولا حاجة إلى هذا ، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة .

كما في قوله تعالى (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقوله تعالى (وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) .

وقوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) .

وقوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) .

وقال ﷺ (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي) رواه مسلم .

وقال ﷺ (أحد جبل يحبنا ونحبه) متفق عليه .

وقد حن الجذع لرسول الله ﷺ .

وقد سبح الحصى في يد رسول الله ﷺ .

(**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**) أي : أنه تعالى رقيب على أعمالكم لا يخفي عليه خافية ، وسيجازيهم عليها ، وفي هذا وعيد وتهديد .

- **قال القاسمي** : وقوله تعالى (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى. فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه ، مطلعاً عليه غير غافل عنه ، كان لمجازاتهم بالمرصاد .
- والغفلة صفة منفية فيجب نفيها عن الله مع إثبات ضدها ، فالله لا يغفل لكمال علمه .

الفوائد :

١- التحذير من قسوة القلب .

٢- أن قسوة القلب من صفات اليهود ، فيجب الحذر منها .

٣- يجب الابتعاد عن كل سبب يؤدي إلى قسوة القلب .

٤- التحذير من قسوة القلب بعد ظهور الآيات ، لأنه أعظم شراً وأكبر إثماً .

٥- أن قلوب بني إسرائيل التي قست كالحجارة أو أشد .

٦- عموم رقابة الله عز وجل على كل شيء ، ولا يفوته شيء ولا يخفى عليه شيء .

٧- أن الغفلة من الصفات المنفية عن الله وذلك لكمال علمه سبحانه .

٨- تهديد العصاة ، بأن الله لا يغفل عنهم .

(**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)**) .

[البقرة : ٧٥-٧٧] .

(**أَفَتَطْمَعُونَ**) أيها المؤمنون .

(**أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ**) أي : ينقاد لكم بالطاعة ، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود ، الذين شاهدوا من الآيات البينات ما شاهدوه ثم قست قلوبهم من بعد ذلك .

- قال القاسمي (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) أي : هؤلاء اليهود الذين بين أظهركم ، وهم متماثلون في الأخلاق الذميمة ، لا يأتي من أخلاقهم إلا مثل ما أتى من أسلافهم .
- **قال القرطبي** : قوله تعالى (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ) هذا استفهام فيه معنى الإنكار ، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود ؛ أي إن كفروا فلهم سابقة في ذلك.

والخطاب لأصحاب النبيّ ﷺ ، وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجِوار الذي كان بينهم.

وقيل : الخطاب للنبيّ ﷺ خاصة .

أي لا تحزن على تكذيبهم إياك ، وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا.

- **قال الرازي** : المراد بقوله (أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ) هم اليهود الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ لأنهم الذين يصح فيهم الطمع في أن يؤمنوا وخلافه لأن الطمع إنما يصح في المستقبل لا في الواقع .
- **قال ابن عاشور** : فإن قلت ، كيف يُنهى عن الطمع في إيمانهم أو يُعَجَّب به والنبي والمسلمون مأمورون بدعوة أولئك إلى الإيمان دائماً ؟ وهل لمعنى هذه الآية ارتباط بمسألة التكليف بالمحال الذي استحالته لتعلق عِلْمِ الله بعدم وقوعه ؟

قلت : إنما نُهينا عن الطمع في إيمانهم لا عن دعائهم للإيمان لأننا ندعوهم للإيمان وإن كنا آيسين منه لإقامة الحجة عليهم في الدنيا عند إجراء أحكام الكفر عليهم وفي الآخرة أيضاً ، ولأن الدعوة إلى الحق قد تصادف نفساً نيّرة فتنفعها ، فإن استبعاد إيمانه حُكم على غالبهم وجَمْهَرتهم أما الدعوة فإنها تقع على كل فرد منهم.

(**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ**) اختلف العلماء في المراد بكلام الله هنا :

فقيل : المراد السبعون الذين اختارهم موسى ﷺ ، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره وحرفوا القول في إخبارهم لقولهم .

وضعف هذا القول بعض العلماء ، لأن فيها (إذهابا) لفضيلة موسى في اختصاصه (بالتّكليم) .

وقيل : المراد بكلام الله التوراة ، حرفوا ما فيها من الأحكام ونعت محمداً ﷺ ، وهذا الصحيح ، ورجحه القرطبي ، وابن كثير ، وابن الجوزي .

قال أبو العالية : عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (... وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُم يَسْمَعُون كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ) في ذلك قولان :

أحدهما : أنهم علماء اليهود والذين يحرفونه التوراة فيجعلون الحلال حراماً والحرام حلالاً ابتاعاً لأهوائهم وإعانة لراشيهم وهذا قول مجاهد والسدي .

والثاني : أنهم الذين اختارهم موسى من قومه ، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره وحرفوا القول في إخبارهم لقومهم ، وهذا قول الربيع بن أنس وابن إسحاق.

- **وقال ابن الجوزي** : وفي سماعهم لكلام الله قولان :

أحدهما : أنهم قرؤوا التوراة فحرّفوها ، هذا قول مجاهد والسدي في آخرين ، فيكون سماعهم لكلام الله بتبليغ نبيهم ، وتحريفهم : تغيير ما فيها .

والثاني : أنهم السبعون الذين اختارهم موسى، فسمعوا كلام الله كفاحاً عند الجبل، فلما جاؤوا إلى قومهم قالوا : قال لنا : كذا وكذا ، وقال في آخر قوله: إن لم تستطيعوا ترك ما أنهاكم عنه؛ فافعلوا ما تستطيعون . هذا قول مقاتل، والأول أصح . وقد أنكر بعض أهل العلم ، منهم الترمذي صاحب «النوادر» هذا القول إنكاراً شديداً ، وقال : إنما خص بالكلام موسى وحده ، وإلا فأي ميزة؟! وجعل هذا من الأحاديث التي رواها الكلبي وكان كذاباً .

- قوله تعالى (ثم يحرفونه) فالمراد بالتحريف إخراج الوحي والشريعة عما جاءت به ، إما بتبديل وهو قليل وإما بكتمان بعض وتناسيه وإما بالتأويل البعيد وهو أكثر أنواع التحريف . (قاله ابن عاشور) .

(**مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**) أي : من بعد ما فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة .

(**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**) أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله ؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) .

(**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا**) تقدم ، قيل : المراد بهم المنافقين من اليهود ، وقيل : هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ،

قاله بعض السلف .

والمعنى : أن هذه الطائفة من المنافقين إذا اجتمعوا بالمؤمنين – النبي ﷺ وأصحابه – (قَالُوا آمَنَّا) وذكروا لهم أنهم آمنوا ، وبيّنوا لهم أن النبي المنتظر المبشر به ، أن صفاته الموجودة في كتبهم منطبقة على هذا النبي ﷺ .

(**وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**) أي : وإذا انفرد واختلى بعضهم ببعض ، ورجعوا إلى أصحابهم ، وكان الموضع خالياً من المؤمنين .

(**قَالُوا**) يعني : أصحابهم الذين لم ينافقوا ، قالوا منكرين على الذين نافقوا وموبخين لهم :

(**أَتُحَدِّثُونَهُمْ**) أي : أتحدّثون المؤمنين وأصحابه .

(**بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ**) أي : بما بيّن الله لكم في التوراة من صفة محمد ﷺ ، وأن هذه صفاته ، وأنها منطبقة عليه ، وأنه لا شك فيه .

(**لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ**) بهذا الإقرار .

(**عِنْدَ رَبِّكُمْ**) أنكم أقررتم بأنكم تعرفون أنه الحق ، يوم القيامة .

(**أَفَلا تَعْقِلُونَ**) هذا من بقية مقولهم لقومهم .

والمعنى أي : أفليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم ؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم .

- **قال الرازي** : قوله (أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) ففيه وجوه :

أحدها : أنه يرجع إلى المؤمنين فكأنه تعالى قال : أفلا تعقلون لما ذكرته لكم من صفتهم أن الأمر لا مطمع لكم في إيمانهم ، وهو قول الحسن.

وثانيها : أنه راجع إليهم فكأن عند ما خلا بعضهم ببعض قالوا لهم أتحدثونهم بما يرجع وباله عليكم وتصيرون محجوجين به ، أفلا تعقلون أن ذلك لا يليق بما أنتم عليه ، وهذا الوجه أظهر لأنه من تمام الحكاية عنهم فلا وجه لصرفه عنهم إلى غيرهم .

- وهذا يدل على أنهم في غاية الجهل ، لأنهم لو كتموه ، أليس الله عالماً بما في ضمائرهم ؟ ولذلك وبخهم الله بقوله :

(**أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**) أي : أولا يعلمون هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفونه وما يظهرونه ، والمعنى : أن إسرارهم وإعلانهم عند الله سواء ، لأن الله يعلم السر وأخفى ، السر عنده علانية .

- فالله تعالى يعلم ما يسرونه ويبطنونه وما يعلنونه .
- **قال ابن عطية** : والذي أسروه كفرهم ، والذي أعلنوه قولهم آمنا ، هذا في سائر اليهود ، والذي أسره الأحبار صفة محمد ﷺ والمعرفة به ، والذي أعلنوه الجحد به ، ولفظ الآية يعم الجميع .

قال أبو العالية : يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوباً عندهم .

وقال الحسن : كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد بما فتح الله عليهم بما في كتابهم خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم (وما يعلنون) أي: حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ آمنا .

الفوائد :

١– تأييس النبي ﷺ وأصحابه من إيمان هؤلاء المعاندين المنحرفين .

٢– إثبات كلام الله ، وأن الله يتكلم .

٣- ذم تحريف الكلم عن مواضعه .

٤- أن تحريف الشيء بعد فهمه من نقصان العقل وأشد إثماً من تحريفه إذا لم يفهمه .

٥- أن نبوة النبي ﷺ كانت معروفة عند اليهود وكتموها .

٦- أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث ولقاء الله .

٧- إثبات عموم علم الله لكل شيء .

٨- وجوب الحذر من معصية الله ، لأن الله يعلم كل شيء حتى ما في الصدور .